Academic International Journal of Social Sciences and Humanities
ISSN: 2984-7729
Aca. Int. J. Soc. Sci. H. 2025; 3 (2) 07-16
Journal homepage: http://www.aipublishers.org/aijssh

The Role of Exegetes and Linguists in Laying the Foundations for Linguistic Criticism and Developing It: The Pillars of Its Emergence and The Horizons of Its Universality

Abdelfdil Draoui

Faculty of Arts and Humanities, Abdelmalek Essaadi University, Tetouan, Morocco

Email: draouiabdelfdil@gmail.com

Article Info.
Article history:
Receive 24 September 2025
Revised 30 October 2025
Accepted 1 December 2025
Published 9 December 2025
Keywords:
Linguistic theory, Interpreters - Linguists - The aesthetics of poetry - Direct language - Deviation - Origin.
How to cite:
Abdelfdil Draoui (2025). The Role of Exegetes and Linguists in Laying the Foundations for Linguistic Criticism and Developing It: The Pillars of Its Emergence and The Horizons of Its Universality. Aca. Intl. J. Soc. Sci. H. 3 (2) 07-16
https://doi.org/10.59675/S322
Copyright:
This article is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License (CC BY 4.0)..

Abstract

This study aims to reveal the pioneering role of commentators and those engaged in the study of the miraculous nature of the Quran and of Quranic sciences in general. In establishing a linguistic theory in the Arab-Islamic heritage, tremendous and diverse efforts began in the third century and became firmly established thereafter. Its main goal was to serve the Holy Quran, convey it to people, clarify its meanings, and strengthen understanding and interpretation in a way that preserves the nation's identity and protects its faith from currents of deviation, doubt, and biased interpretation, this resulted in pioneering theoretical and applied efforts in dealing with the Arabic language, through studies in grammar, rhetoric, and linguistic criticism, achieved through two levels of looking at the language. The first level is the level of direct standard language or the level of the base and origin. The second level is the level of aesthetic language, or the second indirect language, or the level of branch and deviation. From both levels, one can glean the features of a linguistic theory in the Arab-Islamic heritage, as reflected in the efforts of Qur'an scholars and interpreters, characterised by a degree of flexibility and adaptability to change, and open to absorbing possible human interpretations and contributions.

دور علماء التفسير واللغويين في التأسيس لنظرية النقد اللغوي وتطويرها

مرتكزات النشأة وآفاق الكونية

د. عبد الفضيل ادراوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب

draouiabdelfdil@gmail.com

الملخص:

تهدف هذه الورقة الكشف عن الدور الرائد الذي قام به المفسرون والمشتغلون بالدراسات الإعجازية وعلوم القرآن عموما، في التأسيس لنظرية لغوية في التراث العربي الإسلامي، من خلال جهود جبارة ومتنوعة نشطت منذ القرن الثالث الهجري وتأصلت فيما بعده، كانت غايتها الكبرى خدمة القرآن الكريم وتوصيله للناس، ومحاولة ضبط دلالاته، وتحصين الفهم وعمليات التأويل، بما يحفظ للأمة هويتها ويصون عقيدتها من تيارات الانحراف والتشكيك والتأويل المغرض. ما أثمر اجتهادات تنظيرية وتطبيقية رائدة في التعامل مع اللغة العربية، من خلال مباحث في النحو والبلاغة، والنقد اللغوي، تحققت من خلال مستويين من النظر إلى اللغة؛ مستوى أول هو مستوى اللغة المعيارية المباشرة أو مستوى القاعدة والأصل. ومستوى ثان، هو مستوى اللغة الجمالية أو اللغة الثانية غير المباشرة، أو مستوى الفرع والانزياح. ومن المستويين، يمكن استلهام ملامح نظرية لغوية في التراث العربي الإسلامي، من خلال جهود علماء القرآن والمفسرين، متسمة بقدر من المرونة والقابلية للتطور، ومنفتحة على استيعاب الاجتهادات والمساهمات البشرية الممكنة لاحقاً.

الكلمات المفتاحية:

النظرية اللغوية، المفسرون، اللغويون، جمالية الشعر، اللغة المباشرة، الانزياح، الأصل.

مقدمة

نسعى من خلال هذه المساهمة إلى الدفاع عن وجهة نظر ترى أن العلماء الذين اشتغلوا بالنص القرآني وبالعلوم المحيطة به، كالفقهاء واللغويين والنحاة والبلاغيين، والعلماء الذين اشتغلوا بالتفسير وبالبحث في إعجاز القرآن وفصاحته وبيانه، وغيرها من الاختصاصات والفروع المعرفية ذات الصلة باللغة العربية، كان لهم الدور الرائد في التأسيس لما يمكن أن يشكل ملامح واضحة لنظرية النقد اللغوي في التراث العربي الإسلامي سواء أ بشكل مباشر وصريح أم بشكل ضمني ومستخلص. فقد استطاعوا عبر مجهودات متفرقة، ومباحث متعددة، المساهمةَ في توجيه مسارات النظر إلى الظاهرة اللغوية، وقضايا تداولها في الخطاب الفصيح وتفعيلها، في اتجاهات من البحث أكسبتها ملامح إنسانية خالدة، ومقومات بقاء كونية، ساهمت في تحقيق نتيجة ثلاثية الأبعاد؛ تمثل الأول في خدمة النص القرآني وتقريبه من الأفهام والمدارك الإنسانية، مع حفظ جلاله البيانيّ المثاليّ المعجز. وتمثل الثاني في خدمة اللغة العربية، وحفظ مقوماتها وتحصينها من الضعف والابتذال والسوقية. فبقيت قوية صامدة مستمرة مستوية على سوقها، مشتداً عَضُدُها، لا يلحقها الضعف ولا يحيق بها هوان. وتمثل البعد الثالث في قدرة تلكم التنظيرات والتخريجات على مسايرة أكثر النظريات اللغوية نضجا وعلمية في تاريخ اللغات البشرية، والاستعداد للتواشج ومعانقة آفاق بحثية إنسانية ممكنة، بقابليتها الذاتية للانفتاح والتواصل الفعال أخذاً وعطاءً.

Aca. Intl. J. Soc. Sci. H. 3 (2) 07-16. DOI: https://doi.org/10.59675/S322

النظرية اللغوية وحتمية وصل التراث

تبعاً لما سلف، لا يمكن للباحث المختص، سواء أكان مُنَظِّراً ونازعاً إلى صياغة القوانين وتجريد الأحكام، أم كان محلِّلاً مُطبِّقاً للمقولات والمعايير، لا يمكنه الحديث، في زمننا الراهن، عن نظرية في النقد اللغوي، بل ولا يمكن أن تتم بشكلها الصحيح، من دون استيعاب مجهودات هؤلاء الرواد الأفذاذ، الذين تميزت مساهماتهم بطابعها الشمولي، وبغنى القضايا والرؤى التي كانوا يصدرون عنها ويكلمونها في طرح القضايا اللغوية ومعالجتها، في سياق تفسير النص القرآني وتأويله وشرحه وإعرابه وبيان إعجازه.

فقد تضمنت اجتهاداتهم قضايا كثيرة ومتشعبة تستمد قيمتها وأهميتها، من كونها تمتد لتطل على مجالات مختلفة، تستوعب علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد الأدبي، كما تتعالق مع قضايا اللسانيات المعاصرة والتأويليات، وفلسفة اللغة والأسلوبية الحديثة، ونظريات الحجاج، وجماليات التلقي، وكذلك الفلسفة والمنطق وعلم النفس والاجتماع وغيرها. كما تحوز منظورات هؤلاء قيمتها، من جانب ما تنطوي عليه من قضايا حيويّة وخصبةٍ، تبدو باستمرار قادرة على أن تُولد الإشكالات، وتخلق أو تُشعِر بمآزق فكرية عويصة، تدفع بالقارئ إلى مزيد من البحث والتأمل وإعمال الفكر، للارتقاء بها إلى مستويات تجعل منها قضايا تنظيرية حقيقية، تهم المعتقد والهوية و(الأنا) الجمعي، وتنخرط في إشكالات أدبية وثقافية كبرى.

على أن أهم ما يميز هذه الجهود، إمكان النزوع بها نحو التجريد والصورنة، وتكشفها عن مستويات عليا من التجريد والنمذجة التنظيرية، رغم كونها جهوداً منفتحة على مجالات مختلفة ومتباينة. فهي لا تسجن نفسها ضمن دائرة تخصصية ضيقة، ولا تقيم الحدود الصارمة بين المجالات المعرفية. ولذلك فهي تتوقف على وجود إرادة بحثية حقيقية وصادقة، يكون بمقدورها تحويل الصياغة إلى تصور منهجي متكامل معاصر، يسمح بإمكانية الحديث عن وجود نظرية لغوية في النقد العربي القديم. ويجعل من إنجازات الأقدمين انشغالات حقيقية، يمكن نعتها –بحسب تعبير عبد العزيز حمودة–؛ "بداية لصفيرة نظرية في اللغة أو نظرية في الأدب" (حمودة، (n.d)، ص. 11)، تتجاوز حشرها في كونها مجرد استجابة إشراطية للتأثير الأرسطي، أو حدود الانشغال بالفكر اليوناني في الشعر والخطابة والمنطق.

إن هذه تصورات، يمكن للنقد المعاصر أن يعتكف على تطويرها واستثمارها والعمل على تكييفها، بما يخدم الاهتمامات الثقافية المعاصرة، وبما من شأنه أن يرد ويفحم تلكم الآراء والمواقف المتطرفة والنشاز، التي فضلت أن تولي وجهها صوب الدراسات الغربية الحديثة في دراسة النقد والأدب وتلمس القيمة الجمالية الإقناعية في الخطابات، فاستسلمت لموجات الحداثة المفرطة وادعاءات التجديد، فجاهرت وبإعراضها عن ريادة التراث في التأسيس للنظرية اللغوية والنقدية المتكاملة. بل أنكرت أية مساهمة ممكنة للمجهودات القديمة في بناء النظرية اللغوية والنقدية ذات الصلة بالهوية الثقافية العربية الراهنة، بحجة وجود خليط متداخل من شذرات نقدية متعددة، غير متكاملة ولا مسعفة في تبنيها، أو الاعتماد عليها لبناء نظرية لغوية أو نقدية معاصرة، كما الشأن هو مع من رأى أنه "يصعب على القارئ أن يجزم بأن هذا الناقد أو ذاك نموذج لغوي بحت؛ لأنهم في الحقيقة قد خلطوا بين هذه الأمور جميعا.. في نسيج يصعب استدلال خيط واحد منه، إلا إذا كان الهدف هو تمزيقه والاستغناء عنه" (طاهر.ح، 1985، ص. 12)".

مركزية الشعر في النظرية اللغوية

لقد كان من أهم الإجراءات التي قام بها العلماء الذين اشتغلوا بالنحو والبلاغة عموما، وبلغة النص القرآني وببلاغته وإعجازه تحديداً، أن أعطوا للشعر مكانة خاصة ولافتة، وجعلوه في المرتبة الأولى بعد القرآن الكريم، مصدراً للاستشهاد واستنباط القضايا والقوانين والأحكام المرتبطة بالتقعيد والتنظير، بحثا عن أفق أرحب لإيجاد نظرية لغوية عربية.

وقد حصل ذلك لإدراكهم أن الذائقة العربية مستنبتة في التربة الشعرية، ومتشبّعة بقوانين الشعر وآفاقه الممتدة، التي من شأنها أن تتيح للتنظيرين البلاغيّ والنقديّ مساحةً واسعةً، تغني اللغة وتفتح أمامها آفاقا أوسع ومجالات أرحب. فنحن لا نكاد نصادف بلاغيا إعجازياً ولا مفسراً اشتغل بالبيان القرآني، إلا وله تأكيد صريح على أهمية الشعر وقيمته ومركزيته في الرواية والاستشهاد. فقد أدركوا

Aca. Intl. J. Soc. Sci. H. 3 (2) 07-16. DOI: https://doi.org/10.59675/S322

أنه الوسيلة الأولى والطريق المثلى لحفظ تاريخ الأمة وصيانة هويتها. لذلك كانت الإرهاصات الأولى لتشكل ملامح النقد في التراث العربي الإسلامي تنطلق من محورية الشعر في التفكير والاشتغال. إن الشعر كما ينقل ابن سلام الجمحي (ت.231هـ)، كان بالنسبة إلى العرب منذ الجاهلية "ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به... يأخذون وإليه يصيرون" (الجمحي، 2001، ص. 34). وفي هذا الشأن تُروى القولة المشهورة عن عمر بن الخطاب: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه" (الجمحي، 2001، ص. 34). تبعاً لذلك، كانت الكتابات النقدية الأولى تحتفي أيما احتفاء بالشعر وضروبه، وبطبقات الشعراء ومنازلهم، وبمرويات الشعر الطوال والقصار، وبالنتف من القصائد. فكان الفقهاء والإعجازيون وعلماء اللغة على حد سواء، يعقدون أبواباً من كتبهم لبيان فضيلة الشعر وأهميته، كما هو الشأن مع ابن رشيق مثلا، الذي نجده يعقد بابا خاصاً من كتابه خصصه للحديث عن فضل الشعر (ابن رشيق،(n.d)، ص.5)، وتبيين فضله وأهميته. كما أنه يورد كثيراً من أشعار الخلفاء والفقهاء والقضاة وأصحاب الجاه والحظوة، وهو يصرح بتفضيله الشعر على النثر، "لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة". ويبين دور الشعر في الحياة، ومساهمته في حماية القبائل وانتصاراتها في الحروب، ودفع المضار ورد الخصومات (ابن رشيق، (n.d)، ص.5).

ويشير ابن قتيبة(ت) إلى ما يؤكد أهمية المادة الشعرية في علاقتها بالعلوم والمعارف الأخرى، فيبين أن منتقياته من الشعر والشعراء في مؤلفه المعروف، إنما كان قائما على مدى رواج البضاعة الشعرية بين العلماء في الحقول المختلفة: "وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" (ابن قتيبة، (n.d)، ص. 59).

ومن يتتبع كتاب المزهر لجلال الدين السيوطي في علوم اللغة وأنواعها، (السيوطي، 2007) يجد أنه قد حفل بشواهد نثرية وشعرية كثيرة جدا، ومن مختلف المواضيع والعصور الأدبية. وقد اعتمد السيوطي في مزهره العديد من المصادر، كالخصائص لابن جني، وأمالي القالي، وأمالي ثعلب، ونوادر أبي زيد، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس... وغيرهم، وكلها يأخذ عنها استشهادها بالشعر واستثماره في التخريجات اللغوية، وفي بيان القواعد والقوانين والأساليب التعبيرية البلاغية. بل إنه يعقد مبحثا مطولا في معرفة الشعر وأحوال الشعراء، ودوره في معرفة اللغة والتنظير لها: "قال ابن فارس: والشعر ديوان العرب، وبه حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، ومنه تُعُلِمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من كتاب الله، وحديث رسول الله صلى الله عليه، وحديث صحابته والتابعين" (السيوطي، (n.d)، ص 356). فتبدو معرفة الشعر محورية في فهم كتاب الله، وتعلم اللغة وأفانينها، بل يغدو الشعر هو الفيصل في معضلات الغريب والمشكل من المعاني والألفاظ.

وللغرض نفسه أعطى عبد القاهر الجرجاني أهمية كبرى للشعر في دلائل الإعجاز، لأنه رأى أن معرفة الإعجاز متوقفة على ضبط استعمالات اللغة الفنية وانحرافاتها عن الأصل المباشر. يقول : "إن ها هنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الرويةُ والفكرُ، ولطائفَ مستقاها العقُل، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هُدوا إليها، وكُشِف لهم عنها، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضا.. حتى ينتهي الأمر الى الإعجاز، وإلى أن يخرج من طوق البشر" (الجرجاني، 1989، ص. 7). فكان المعترضون على الشعر بمثابة المعترضين على كتاب الله، لأنهم يعترضون على طريق فهم كتاب الله وإدراك فصاحته. يقول: "إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا الى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك، إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب" (الجرجاني، 1989، ص.8)، لأنه كان "ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قصب الرهان" (الجرجاني، 1989، ص.9)، لذلك يستنتج أن الزهد في معرفة الشعر وتعلمه، والاعتراض على أهميته، إنما هو طريق للاعتراض على تعلم كتاب الله وإدراك أسراره، فكان" الصاد عن ذلك صادّاً عن أن تعرف حجة الله تعالى" لأنه بمثابة "من أعدمك العلم بأن فيه شفاءً، وأن لك فيه استبقاءً" (الجرجاني، 1989، ص. 9).

Aca. Intl. J. Soc. Sci. H. 3 (2) 07-16. DOI: https://doi.org/10.59675/S322

هذه الأهمية التي أعطيت للنص الشعري من لدن البلاغيين والإعجازيين ومفسري القرآن، وكل اللغويين ونقاد الأدب وغيرهم، كانت كذلك بوصفه طريقاً لفهم القرآن الكريم، ووسيلة فضلى لاكتساب الأهلية الفنية لإدراك أسرار الفصاحة القرآنية الخالدة.

وقد كان من نتائجها الرائدة أن ارتبطت الأسس الأولى للنظرية النقدية اللغوية بمقومات الجمال والإمتاع، وسارت في اتجاه البحث في أسرار ومقومات الكلام الممتع والجميل والمؤثر، وهو ما جعلها مرتبطة بالإنسان ومؤمنة بحاجاته ومتطلباته الذوقية. وهو بلا شك عنصر ضامن لبقاء النظرية واستمرارها، لأنها تكون مرتبطة بالإنسان ومراعية متطلبات "القارئ العام. ومتطلعة للتواصل الإنسانيّ الرحب" (مشبال، 2002، ص. 17).

النظرية اللغوية ورهان الجودة والتحسين

لا يخفى أن إجراء المشتغلين بالدرس القرآني، حينما ربطوا المعايير اللغوية والبلاغية بالقول الشعري، إنما كان إجراءً واعياً ورائداً، فهو يكشف عن بعد نظر يرنو إلى حفظ اللغة على مر العصور، إذ كان من نتائجه الاستراتيجية الكبرى، أن سارت النظرية اللغوية والنقدية في الاتجاه الجمالي التأثيري، الذي قاد إلى الاهتمام بالقول الفصيح وبالجميل الذي تستعذبه الذات فردا وجماعة، وتتعارفه الذائقة العربية العامة.

والحق إننا عندما نتتبع مفهوم البلاغية والأدبية في التداول العربي، وفي استعمالاته اللغوية، نلفي أنه مفهوم لا ينفصل عن معاني جودة التوصيل وابتغاء التأثير. وهو يرتبط دائما بمعاني التحسين والتجويد، لضمان النجاح في التبليغ. ف"(بلغ بَلاغة وبُلاغة): فصح وحسن بيانه فهو بليغ. و(أبلغَه الشيءَ وإليه): أوصله إليه. و(البلاغ): التّبليغ، ومنه(هَذَا بَلَاغٌ لِلنّاس) وما يتوصل به إلى الغاية. و(البلاغة)حسنُ البيان وقوةُ التأثير. و(عند علماء البلاغة): مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته" (مجمع اللغة العربية، (د.ت)، ص. 79– 80). وهي عند الشريف المرتضى ترد مقترنة أبدا بالفصاحة والبراعة وجودة الكلام (المرتضى، 1962، ص.)..

ويتسع مفهوم البلاغة ليشمل إضافة إلى حسن التوصيل والإفهام ، كل ما يحقق الإطراب والإمتاع ويغذي مشاعر التلذذ. يشير إلي هذا أبو حيان التوحيدي فيقول: "أما البلاغة فإنها زائدة على الإفهام الجيد بالوزن والبناء والسجع والتقفية والحلية الرائعة... وهذا الفن لخاصة الناس. لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام" (التوحيدي، 1986 ، ص. 392). ومعلوم أن الإطراب لا يمكن أن يتحقق، ما لم تكن المادة المعروضة علية، على درجة لا يستهان بها من الإتقان والصنعة والحسن.

وفي الاتجاه نفسه يتأطر تحديد الخطيب القزويني، الذي يتحدث عن فصاحة الكلام وبلاغته، فيرى أنها خاصيات فنية لا تتحقق له إلا إن هو حافظ على التناسق المطلوب، وهي "خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحتها" (التوحيدي، 1986، ص. 12).

كما إن المتكلم نفسه لا يمكن أن يستحق صفتي الفصيح والبليغ ما لم يراع الكيفية المطلوبة في القول، وما لم يحز ملكة الإجادة: "وأما فصاحة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح. فالملكة قسم من مقولة الكيف التي هي هيئة قارة لا تقتضي قسمة ولا نسبة. وهو مختص بذوات الأنفس راسخ في موضوعه". فشرط البلاغة إذن في علاقته بالمنشئ، راجع إلى توفر المتكلم على "ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ" (التوحيدي، 1986، ص. 15). وهذا من شأنه أن يجعل الممارسة اللغوية موسومة بلا شك، بسمات داخلية وذاتية تستنجد الخبرة والتجربة والإحساس الشخصي قبل أي شيء آخر.

وغير عازب عن الذهن أن النظرية اللغوية والأدبية، وهي تقترن بالصنعة وحسن البناء، تغدو واقعة في صميم عملية النظم كما عرضها عبد القاهر الجرجاني. وهي عملية عليها مدار المفاضلة بين الخطابات من جانب، وبين منشئي الخطابات أنفسهم. فهي عملية يستفتى فيها الفكر والعقل. ويلتمس فيها أيضا التحسين وجودة الصنعة. ف"هذا النظم الذي يتواصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله، صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة" (الجرجاني، 1998، ص. 51). إذ تغدو عملية النظم أهم سمة ترشح

Aca. Intl. J. Soc. Sci. H. 3 (2) 07-16. DOI: https://doi.org/10.59675/S322

الكلام كي يستحق صفة البلاغي أو الفصيح. فبلاغيته وجماليته في نظمه، ونظمه في تحسينه وصنعته وتجميله، بما "يجعلك تأبى أن تقنع إلا بالتمام وأن تربع إلا بعد بلوغ الغاية" (الجرجاني، 1989، ص. 37).

وبهذا تكون النظرية اللغوية والبلاغية متشربة الكنه الجمالي. وذلك بما يستطيع أن يوفره الخطاب من إمكانات إمتاعية إقناعية تغذي القلب والعقل معاً، وتتوجه إلى الشعور. أي أن بلاغية العمل تغدو مُعَايَنَةً بقياس مدى قدرته على أن "يملأ صدراً، ويمتع عقلاً، ويؤنس نفساً". (الجرجاني، 1991، ص. 55)

ولم تخرج إسهامات الجاحظ عن ابتغاء التحسين والصنعة في الخطاب، فهو يرى أن الشخص الفصيح المحسوب على البيان العربي، هو "الذي قد تعبد للمعاني وتعود نظمها وتنضيدها وتأليفها و تنسيقها واستخراجها من مدافنها وإثارتها من مكامنها" (الجاحظ، (د.ت)، ص. 30) .وهي عمليات صنعة البديع الذي يوازي في أهميته مسألة النظم عند الجرجاني. فالبديع هو الخاصية التي ميزت أمة العرب وبه تميز كلامها وتفرد. يقول:" والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان"[1]. (الجاحظ، (د.ت)، ص ص. 55 –56).

ويتحصل من مما سبق أن النظرية اللغوية وهي تتأسس في منظور العلماء الذين اشتغلوا بالدرس القرآني وبالفصاحة والإعجاز، على مبدأ التحسين والتجويد وابتغاء الصنعة، ضمنت بذلك لنفسها البقاء والاستمرارية والقرب من الإنسان، الذي فطر على الجميل والجمال. وهو مبدأ أبقى المباحث اللغوية حية ومتحركة وخصبة، مرتبطة بتطلعات الإنسان وبنشدانه الكمال وبحثه عن الأفضل والأحسن.

النظرية اللغوية والسمت الحجاجي

وبالقدر ذاته ارتكزت النظرية اللغوية النقدية لدى العلماء المسلمين إلى شق آخر، لا يقل أهمية عن الشق الجماليّ، وهو الشق الحجاجيّ الإقناعيّ، من خلال منظوراتهم إلى أي خطاب إنساني، بجميع أصنافه وأنواعه، على أنه ذو مقومات حجاجية. لفقد ذهبوا إلى أن كل خطاب مسؤول إلا وينبثق أساساً من نظرة لا تؤمن بتجزيء الإنسان إلى حس من جهة، وإلى فكر من جهة ثانية، أو إلى عاطفة من جهة وعقل من جهة ثانية. وإنما تراه كلا واحدا لا يتجزأ. لذلك وجدناهم يحاولون بناء منظومة نقدية لغوية بلاغية، يتعانق فيها كل من الجماليّ والحجاجيّ، أو الفكريّ والتخييليّ. فالفكريّ يحضر في الخطاب الأدبي مثلا، من خلال اختراق المعرفة السائدة في العصر، ومن خلال العمل على إنتاج معرفة موسومة بالقلق إزاء الإنسان والمصير، وإزاء الحياة والموت والغيب، وإزاء الدين والقيم والأخلاق والمسلمات، وإزاء كل المشكلات التي يواجهها الإنسان، الذي يختلف في مقاربتها والنظر إليها من واحد لآخر. فهو أبدا هاجس الكشف عن الحقيقة ومحاولة معرفة الذات والعالم. ومن جهة أخرى هو خطاب إبداعي تخييلي تصويري، محكوم بقوانين الكتابة الجمالية، التي تهدف إلى خلق المتعة في المتلقي وإشباعه فنيا. ولعله من الطريف أن نشير إلى أن جذر كلمة فكر في أصل اشتقاقه يعود إلى ما يرتبط بالنفس و القلب قبل العقل، وهو يعني إعمال الخاطر في الشيء، أي ما يخطر في القلب أو الهاجس. إذن أن نفكر هو أن نتأمل بقلوبنا. أما العقل فهو في أصل اشتقاقه راجع إلى جهة الأخلاق ، فهو يمنع صاحبه من الزيغ و يرده عن الهوى والانحراف و التورط في المهالك . وعلى هذا يكون الفكر مزيجا من الحدس والتأمل (أدونيس،2006، ص. 76). ولم يكن رواد اللغة والبلاغة والنقد العربي الأوائل، ليتغافلوا عن هذه الحقيقة. فقد أجْلَوا أهمية الجدل والحجاج في الخطاب بشكل عام، ونبهوا إلى ضرورة الانتباه إلى هذه الوظيفة التي تشمل النثر والشعر معا.

إن الجاحظ في تنظيراته البلاغية، وهو يحاول ضبط مقومات البيان العربي، نجده لا يعير الخطاب قيمته إلا بالنظر إلى وظيفته التواصلية، ومدى تأثيره في المتلقي. فالبيان عنده "اسم جامع لكل شيء كشف يلك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير...

Aca. Intl. J. Soc. Sci. H. 3 (2) 07-16. DOI: https://doi.org/10.59675/S322

لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هي الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع" (الجاحظ ، (د.ت)، ص 76). ويرى أن مدار جميع المرْوِيات والمأثورات في البيان والبلاغة من كلام الفصحاء والخطباء والبلغاء، إنما هو راجع إلى "الفهم ثم الإفهام والطلب ثم التثبت" (الجاحظ ، (د.ت) ص 39). كما يشنع ويستقبح على المتكلم، أن يعجز عن الإفصاح والبيان، ويجد نفسه مضطرا إلى التكلف أو التصنع: "ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف، وبيانا يمازجه التزيد" (الجاحظ، (د.ت)ص 13). بل إنه يشير صراحة إلى خطورة أن تخون القائل الحجة في الكلام، وهو ما يسميه ب"العي من اختلال الحجة".(الجاحظ ،(د.ت)، ص 12). فهو بحاجة إلى " تمييز وسياسة وترتيب ورياضة وتمام آلة وإحكام صنعة" (الجاحظ، (د.ت) ص 14).

وجميع ما يستشهد به الجاحظ في كتابه مما قاله العرب، يحوز قيمته من وظيفته التداولية الإقناعية بشكل أساس. ولعل إشاراته إلى خصائص الخطيب وصفاته الجسدية وملكاته الذهنية، سواء أكانت إيجابية؛ تمنح خطابه القبول والفهم وتنجح غايات التأثير فيه، من حلاوة القول وحذق العبارة مراعاة المقام، أم سلبية؛ تسيء للخطاب وتهدده بالتلف، كالعي واللكنة وخفوت الصوت...إلخ، فهي جميعها داخلة في مورد الاهتمام بالخطاب، منظورا إليه من الزاوية الحجاجية الإقناعية. يقول: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة" (الجاحظ ، (د.ت)، ص. 182).

وهذا ابن وهب الكاتب يخصص عنوانين؛ (الجدل و المجادلة) و(أدب الجدال) ضمن كتابه المعروف بالبرهان (ابن وهب، 1967). للحديث عن هذا الجانب في الخطاب. يقول في مستهل باب (الجدل والمجادلة):

"وأما الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين. ويستعمل في المذاهب والديانات وفي الحقوق والخصومات والتنصل من الاعتذارات. ويدخل في الشعر وفي النثر" (ابن وهب، 1967، ص 122). وهو قول لا يخفى أنه يثبت ويرسخ الحضور البين والشامل لوظيفة الحجاج الإقناعي ضمن دائرة الكلام العربي، وخصوصاً ضمن الشعر والنثر، بوصفهما الجنسين الكبيرين في الثقافة العربية.

ويشير حازم القرطاجني (ت. 684 هـ) إلى اشتراك الخطابة والشعر في الإقناع والتخييل. فهو الهدف المتمثل في "إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفس بمحل القبول لتتأثر بمقتضاه" (القرطاجني،1966، ص.361). إذ تبدو الوظيفة الحجاجية مرتبطة بالقول في حد ذاته. والذي يقوم على التزيين بصور اللغة للتأثير في المتلقي إقناعه. فتزيين الكلام بأي مظهر من المظاهر التواصلية، يشكل في حد ذاته "قوة في المعنى والبيان، حتى يتسنى للمتكلم من خلال هذه القوة، تمرير مواقفه وأطروحاته" (عشير،2006، ص.123).

لقد كان عصب النظرية اللغوية البلاغية والنقدية في التراث العربي الإسلامي مبنياً على كيفية التأثير بالجميل الحسن، وبالمقنع من الحجة، للتوجيه والتغيير الخارجيين، ولقد شكل هذا منفذاً مهما، وجّه الاهتمامات بالشأن اللغوي، على امتداد تاريخ اللغة العربية الطويل، أي ضبط محاولات وسبل النفاذ إلى نفسية المتلقي، عبر الخطاب اللغوي والأساليب التواصلية الممكنة، من أجل دفعه إلى الفعل، أو الكف عنه، بعد جعله يعتقد معتقدات ويتخلى عن أخرى، بالتوسل بما هو متاح من أساليب الإقناع حتى ولو كان المجال مجال تخييل محض. يقول صاحب المنهاج: "إن التخيل هو قوام المعاني الشعرية، والإقناع هو قوام المعاني الخطابية، واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغ، إذا كان ذلك على جهة الإلماع في الموضع بعد الموضع، كما أن التخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابية في الموضع بعد الموضع. وإنما ساغ لكليهما أن يستعمل يسيرا فيما تتقوم به الأخرى، لأن الغرض في الصناعتين واحد، وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر بمقتضاه. فكانت الصناعتان متآخيتين لأجل اتفاق المقصد والغرض فيهما. فلذلك ساغ للشاعر أن يخطب لكن في الأقل من كلامه وللخطيب أن يشعر، لكن في الأقل من كلامه" (القرطاجني، 1966، ص. 331).

Aca. Intl. J. Soc. Sci. H. 3 (2) 07-16. DOI: https://doi.org/10.59675/S322

وعلى هذا المنوال سارت النظرية اللغوية تنظر إلى الخطاب اللغوي مهما كان نوعه، بوصفه ذا وظيفة مزدوجة؛ فهو من جانب ذو بعد جمالي إمتاعي تحسيني. وهو من جانب ثان حجاجي مقنع، يتوجه إلى متلق لإحداث تغيير ما في نفسيته ومواقفه ومعتقداته.

ويشير ابن سينا(ت 428 هـ)، في معرض حديثه عن القياس عند الفلاسفة، إلى أن جميع الأقاويل، بكل أصنافها وأنواعها، تشترك في اعتماد الضمير والمثال، نظرا إلى قيمتهما الحجاجية ووظيفتهما الإقناعية؛ "ويشترك المثال والضمير في أن كل واحد يفيد إقناعا، أي يجعل شيئا لم يقتنع به مقتنعا به" (ابن سينا، 1954، ص ص 36، 39، 167).

بل إن النظرية اللغوية مع ابن سينا تفصح عن طابعها الإنسانيّ لارتباطها بالوظيفة في الحياة الاجتماعية. بالنظر إلى طبيعة اللغة التشاركية، القائمة على تفاعل الناس بالكلام، ويكون مؤداها تحقيق النفع وجلب الحسن. فالظاهرة البلاغية عنده صناعة عظيمة، "لأن الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن أفضل نفعاً وأعم على الناس جدوىً من أضدادها. وذلك لأن نوع الإنسان مستبقىً بالتشارك، والتشارك محوج إلى التعامل والتجاور. والتعامل والتجاور محوجان إلى أحكام صادقة في الأمور، بما ينتظم شمل المصلحة. وبأضدادها يتشتت. وهذه الأحكام تحتاج أن تكون مقررة في النفوس... فإحدى فضائل هذه الصناعة غناؤها في تقرير هذه الأغراض في النفوس" (ابن سينا، 1954، ص 22).

وهي الوظيفة نفسها مع الجرجاني الذي يجعل التمثيل في الخطاب ذا وظيفة تداولية مزدوجة؛ فهو من جانب ذو وظيفة شعرية، ومن جانب آخر ذو وظيفة حجاجية: "واعلم أن مم اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كَساها أُبَّهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا. وقسر الطباع على تعطيها محبة وشغفا" (الجرجاني، 1981، ص93). هذا الأمر عبر عنه محمد العمري ب(لذة المعرفة ولطف المفارقة) وفسر ذلك عند الجرجاني بالمرجعية الفلسفية وتأثيراتها فيه. خاصة سياق الصراع بين أنصار العقل و أنصار الحس، أنصار الطبع و أنصار الصنعة، المدافعين عن سلطة المحافظة والمحتكرين لعمود الشعر وبين المؤولين للإبداعات الجديدة (العمري، 1999، ص 397).

النظرية اللغوية من التراث إلى آفاق الإنشائية المعاصرة

لعل من مظاهر ريادة العلماء المسلمين القدماء في تأسيسهم للنظرية اللغوية ومحاولاتهم ضبط قوانين صنعة الكلام، أن منجزاتهم عن طبيعة الخطاب الفصيح، ومقومات التواصل البليغ، وحقيقة الخطاب اللغوي المتأرجح بين صورة مثالية مجردة وقارة، وصورة بلاغية متحركة ومتغيرة، مرتبطة بالإنجاز والتداول، وعلاقة اللغة بالمتكلم، ووظائفها الجمالية والإقناعية الحجاجية، كل ذلك يلتقي مع الاتجاهات الكبرى المعاصرة في الإنشائية الغربية، التي تتفق مختلف اتجاهاتها على التمييز بين اللغة المعيارية المباشرة، وبين اللغة الجمالية أو الانزياحية. نجد ذلك مع رواد الأسلوبية المعاصرة في الغرب. كما هو الشأن مع رومان جاكوبسن وجان كوهن ومجموعة (Mu) واجتهادات م. ريفاتير وم.باختين وغيرهم من الذين اهتموا بالبحث في الانزياح التعبيري وفي الصورة اللغوية وفي سبل تجويد العبارة وتحسين الصياغة، لفظا مفرداً أو جملةً أو نصّاً ممتداً، فالبلاغية عندهم مرتبطة التحسين والتجويد. فعند هـ.بليث "البلاغة فن. والفن يعني هنا الصنعة" (بليث، 1999، ص.32). وعند رائد الأسلوبية م.ريفاتير هي "النظر إلى النص باعتباره نتاجا فنيا وليس فقط بصفته متوالية تعبيرية". وهي بذلك ترد قرينة التصوير الفني وعمليات التنظيم والتركيب بالنظر إلى الكلمة الأجنبية؛ (Fingere) Todorov, 1977, p. 118.

وتحيل إلى معاني التقليد والتمثيل والمحاكاة (Imitri) (Barthes, 1964, P.4)، كما تحيل إلى معاني السمو والرفعة والتعالي بالنظر إلى كلمة (Imago) (بارت، 1994،ص 106)

وفي آفاق هذه المعاني والدلالات مضت عديد من المدارس السيميائية واللسانية، في النظر لمفهوم البلاغية والأدبية. فالصورة البلاغية عند (بليث، 1999، ص 66) مثلا، هي "الوحدة اللسانية التي تشكل انزياحا. أو نسق من الانزياحات اللسانية. وما يسميه

Aca. Intl. J. Soc. Sci. H. 3 (2) 07-16. DOI: https://doi.org/10.59675/S322

هذا الدارس، ب"البلاغة الحقة" أو "روح البلاغة " أو الصورة البلاغية"، جميعها قضايا يحددها– استنادا إلى جيرار جينيت– في أنها "كلها كامنة في الوعي بفجوة ممكنة بين اللغة الواقعية (لغة الشاعر)، ولغة محتملة (التي يحتمل أن يستعملها التعبير البسيط والعام)، تلك الفجوة التي يكفي أن تقوم في الذهن لكي يتم تحديد فضاء للصورة" (بليث، 1999، ص 103). هذه الأخيرة مقصود بها الصورة الجمالية التي تحوز قدرا من التحسين والصنعة. وهو ما يزكي مقولة ارتباط البلاغة بابتغاء القول الجميل ونشدان الخطاب المؤثر بصنعته وفنيته. كما لا يمكننا أن نغفل علاقة التحسين بما يسميه ف. مورو ب"الفعالية الخيالية" أو"الخيال الخلاق الذي يفكك كل الخلق ويخلق في الأعماق البعيدة للنفس، عالما جديدا ..يتيح الإحساس بالجدة". (مورو، 2003، ص 90).

فتبدو تخريجات هؤلاء الرواد من نقاد الإنشائية الغربية ومنظري الأسلوبية المعاصرة بمدارسها المختلفة، في تأكيدها القيمة الجمالية وإثباتها عنصر التحسين في القول، كأنها تستعيد بشكل من الأشكال مقومات بلاغية وأدبية الخطاب كما تحددت ملامحها في النظرية اللغوية التي عرضنا لأسسها مع علماء العربية القدماء ودارسي الخطاب القرآني.

خاتمة:

نخلص من كل ما سبق إلى حقيقة أن النظرية اللغوية كما تشكلت مع علماء التفسير واللغويين والإعجازين وغيرهم، انطوت على ملامح من التماسك والقوة لارتباطها بجوانب إنسانية ذات الصلة بحاجاته إلى الجمال ونشدانه الكمال، ولارتباطها بحقيقته بوصفه كائناً عاقلا يُقنع ويَقتنع. ملامح نظرية تشي بقدرتها على البقاء والاستمرار، مثلما تبدو قابلة للتطوير والاستثمار. ومن ثمة فلا مناص من الانفتاح على التراث، والدعوة إلى ضرورة فحصه وتمحيصه. غير أن هذا الانفتاح لا يلزم الباحث بالتوقف عند مضامينه وقضاياه، من أجل فهمها واستيعابها فحسب، بل لجعل عملية الفهم والاستيعاب مقدمة لتأسيس مشروعات جديدة لم يبلورها هذا التراث، أو لم تكن قد تهيأت لها شروط التبلور بعد. ولعل أومبرتو إيكو إذ دعا إلى أهمية الانفتاح على التراث، فإنه كان يدرك محوريته في توليد الأسئلة والتشريع لاهتمامات جديدة، هي ليست بالضرورة مصرح بها سابقا، لكنها بالضرورة تحمل قابلية الاستثمار والتوظيف. يقول إيكو: "إن قضية تطوير الفكر وتجديده، لا تستلزم بالضرورة رفض الماضي وتحييده، بل إننا نعيد فحصه ليس لمجرد أن نعرف ما قيل تماماً، وإنما من أجل أن نعرف الأشياء التي كان يمكن أن تقال، ومن أجل أن نعرف ما يمكننا قوله الآن، استنادا إلى ما قد قيل سلفا" (Eco,1988, p. 13).

Aca. Intl. J. Soc. Sci. H. 3 (2) 07-16. DOI: https://doi.org/10.59675/S322

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

أبو حيان التوحيدي .(1986) *المقابسات*. (تحقيق علي شلق، ط. 1). دار المدى للطباعة والنشر.

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. (د.ت) *البيان والتبيين*. (تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج 4). دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

ابن سلام الجمحي .(2001) *طبقات الشعراء*. دار الكتب العلمية.

ابن سينا، أبو علي الحسين .(1954) *تلخيص الخطابة من كتاب الشفا* (تحقيق محمد سليم سالم). المطبعة الأميرية.

ابن قتيبة، محمد بن مسلم. (د.ت) *الشعر والشعراء*. (تحقيق أحمد محمد شاكر، ج 1). دار المعارف.

ابن وهب الكاتب .(1967) *البرهان في وجوه البيان* (ط. 1). بغداد.

ابن رشيق، أبو علي الحسن. (د.ت) *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده* (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد). دار الجيل.

الجرجاني، عبد القاهر .(1989) *دلائل الإعجاز* (ط. 2). مكتبة الخانجي.

الجرجاني، عبد القاهر .(1991) *أسرار البلاغة* (تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف). دار الجيل.

حازم القرطاجني .(1966) *منهاج البلغاء* (تحقيق محمد الحبيب بلخوجة). تونس.

الخطيب القزويني .(1981) *الإيضاح في علوم البلاغة* (ط. 1). دار إحياء العلوم.

السيوطي، جلال الدين .(2007) *المزهر في علوم اللغة وأنواعها* (شرح محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد جاد المولى، علي محمد البجاوي). المكتبة العصرية.

الشريف المرتضى .(1962) *طيف الخيال* (تحقيق حسن كامل الصيرفي). عيسى الحلبي.

مجمع اللغة العربية. (د.ت) *المعجم الوسيط*. الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث؛ المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.

ثانياً: المراجع الحديثة:

المراجع العربية والمترجمة

أدونيس، علي سعيد .(2006) *الشعرية العربية* (ط. 4). دار الآداب.

بارت، رولان .(1994) *البلاغة القديمة*. (ترجمة عبد الكبير الشرقاوي). الفنك.

بليث، هنريش .(1999) *البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائي لتحليل النص* (ترجمة محمد العمري). إفريقيا الشرق.

حمودة، عبد العزيز. (د.ت) *المرايا المقعرة: نحو نظرية نقدية عربية*. عالم المعرفة، 272.

حسنين، أحمد طاهر. (1985). روافد النقد الأدبي عند العرب: نظرة تحليل وتأصيل. *مجلة فصول*، 6.(1)

ريفاتير، ميكائيل .(1993) *معايير تحليل الأسلوب* (ترجمة حميد لحميداني، ط. 1). دار النجاح الجديدة.

عشير، عبد السلام .(2006) *عندما نتواصل نغير: مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج*. أفريقيا الشرق.

محمد مشبال .(2002) *أسرار النقد: مقالات في النقد والتواصل* (ط. 1). مكتبة سلمى.

مورو، فرانسوا .(2003) *البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية* (ترجمة محمد الولي وعائشة جرير). إفريقيا الشرق.

أحمد طاهر حسنين. 1985. *(حول روافد النقد الأدبي عند العرب: نظرة تحليل وتأصيل)*. فصول. العدد الأول، المجلد السادس.

References

Barthes, R. (1964). Rhétorique de l’image. *Communications*, 4. Seuil.

Eco, U. (1988). *Sémiotique et philosophie du langage*. PUF.

Todorov, T. (1977). *Théories du symbole*. Seuil.